شحاتة النشار (١)

فى المدرسة الابتدائية، شعرت بمذلة الفقراء، كان المشرف يجمع الذين لا يسددون المصروفات ويضربنا بعصا غليظة أمام الطابور وهو يقول «يا ولاد الـ ... مادام فقرا وشحاتين بتتعلموا ليه؟» ويتكرر هذا المشهد يوميا تقريبا، حتى كرهت المدرسة وكرهت التعليم أصلا.
(شحاتة النشار فى حواره معى)

فى كثير من الأحيان، وعندما أقف أمام رجل صلب الإرادة بحيث يفرض نفسه فرضا على تحديات الحياة ويقهرها، أعود بالذاكرة إلى كتاب جميل قرأته فى مطلع الشباب عنوانه «الإنسان يصنع نفسه»، والكتاب يتحدث عن قدرة الإرادة والعمل على تخليق الإنسان وتمكينه من تحدى الصعاب.

ويأتى شحاتة النشار ونحن نجلس معا لأستمع منه إلى تجربته وتاريخ حياته ليجسد هذه الإرادة التى لا تقهر، وتجسد أمامى صبيا مبروم الجسد يرتدى جلبابا باليا يتشعبط فى الأوتوبيسات والترامواياتٍ مناديا على بضاعة فقيرة يلح بها على فقراء لينتزع من هنا مليما أو مليمين ثم اتخيله بعد ذلك ثريا يمتلك مصانع ويديرها بعقل وفكر اشتراكى.

ونعود إلى بداية الحكاية

الأب عامل معمار فى واحدة من أفقر قرى الغربية، تموت الأم وشحاتة فى الثامنة من عمره وتضيق الحياة بالرجل ويجمع أولاده ليرحل بهم إلى القاهرة ليقيموا فى غرفة فقيرة فى حى فقير هو البغالة. يعمل يوما ويتعطل أياما. داخ الأب حتى الحق ابنه فى المدرسة التى اوجعت فقره وجعلته يكره التعليم. ونستمع إلى شحاتة «ذات يوم كنت اتسكع فى حى السيدة فشاهدت ولدا يزاملنى كل يوم فى طابور الإهانة والمذلة. كان يدخل القهاوى ويستوقف المارة ليبيع فيما يشبه الاستجداء المناديل. فى البداية شعر الولد بالخجل لكننى

شاركته وصرنا نلح على الزبون معا كى نوفر قرشا أو قرشين نشترى بهما سندوتشات أو ندخل السينما. وذات يوم أخذت من الولد زميلى ستة قروش كاملة كان حلمى كله يتركز فى أن اشترى فطيرا. أختى كانت تحلم كل يوم بصوت مسموع من الجميع نفسى ادوق الفطير. لكننى فكرت بعقلية التاجر لماذا لا أجرب نفسى فى البيع؟ ذهبت إلى محل «عوف» بالحسين، كان الرجل يعرفنى من كثرة ترددى مع زميلى. باع لى دستة مناديل، بعتها كلها فى ساعة واحدة ، والستة قروش اصبحت تسعة، ذهبت واشتريت دستة ونصف» وفى اصرار لا يعرف التردد، قرر أن يمتلك رأسمالا وأن يشترى فطيرا لاخته. باع، ثم باع ثم باع وتنقل من حى إلى حى.. وفى ضربة من ضربات الحظ تحولت الستة قروش فى يوم واحد إلى ثمانين قرشا، اشترى الفطير وعاد مسرعا إلى البيت واستمتع بمذاق البهجة فى عيون أخته وكل الأسرة وارتمى لينام بعد يوم مرهق. الأب عاد ليجد الفطير والثمانين قرشا. رفص شحاته برجله فأيقظه لينهال عليه ضربا وهو يصيح «سرقت مين يا ابن....» وحكى شحاته حكايته التى لا تصدق. لم ينم الأب ولا شحاتة، أخذه الأب مشيا إلى الحسين. صليا الفجر معا وانتظر حتى يفتح «عوف» المحل. وسأله الأب فوجد اجابة عوف مشجعة «ابنك ليس لصا بل هو تاجر شاطر». وابتهج الأب وفى الطريق قال شحاتة «لن أعود للمدرسة وسأستمر فى بيع المناديل من أجل اخوتى» لعل الأب كان ينتظر هذه الكلمات فقد وافق على الفور والدموع تملأ عينيه. نحن الآن فى عام ١٩٣٧، هو الآن فى الثالثة عشرة من عمره. واستغل شحاتة اليوم بأكمله فى القفز من ترامواى إلى ترامواى ومن قهوة إلى أخرى ومن رصيف إلى آخر. وذات يوم عرض عليه «عوف» فانلات مستوردة وكسب فى الدستة عشرين قرشا فأصبح لدى شحاتة مبلغ من المال. وهكذا وهو الذى بدأ بستة قروش يستطيع أن يبدأ مشروعا حقيقيا ببضع عشرات من الجنيهات، وجاءت الحرب. وتوقف استيراد الفانلات وانفتح امامه باب آخر للرزق فى كامبات الانجليز. صديق من ابناء الشارع الميسورين اسمه محيى الدين صادق كان أبوه وفديا، بدأ يلقنه أن حل مشكلات مصر لن يأتى إلا على يدى الوفد وأن الاستعمار لا يريد الوفد- سارا معا إلى حلوان حيث يوجد الكامب ليضربا عساكر الانجليز بالطوب وبعد المشوار لمرهق اكتشفا استحالة ذلك. وأصبح شحاتة وفديا. لكن لقمة العيش تستدعيه فسافر مع صديق سودانى للعمل فى «كامب» قرب السويس. كسب مالا لا بأس به. لكن السؤال المرير لماذا

يوجد فقراء جدا واغنياء جدا؟ يظل دوما يؤرقه. وفى إحدى زياراته للقاهرة التقى صديقه محيى الدين صادق. وجده وقد تغير فقد قال له نحن يجب أن نساند الفقراء، لكن قيادة الوفد كلها اغنياء. ولهذا لابد من وجود حزب للفقراء والحزب موجود لكنه سرى.

وأصبح شحاتة على الفور عضوا فى الحركة المصرية للتحرر الوطنى (ح.م) واعطاه صديقه كتاب «الرأسمالية تعنى الحرب» لكن تعليمه المحدود وصعوبة الاسلوب حالا دون فهمه لموضوع الكتاب، لكنه شعر بضوء خافت يتسلل إلى قلبه.. إنه ضوء الفكر الماركسى.

وانضم شحاتة إلى خلية مسئولها أحمد الهنيدى والاعضاء ابراهيم عرفة (ميكانيكى طيران)، عبد الله الثقفى (طالب بالأزهر) محمد سعيد (نجار) وعامله فى محل صيدناوى بالعتبة لم يعد يذكر اسمها.

وفى خلية كهذه تفتحت امامه آفاق معرفة واسعة ونضالا اكثر اتساعا، ونستمع إليه يقول «فى أول اجتماع للخلية سمعت محاضرة ممتعة وسهلة عنوانها «تطور المجتمع» تأملت تطور المجتمعات وأيقنت أن العالم سيتجه حتما إلى الاشتراكية، وشعرت بأننى أكاد أن اطير فرحا، فقد عرفت حقيقة وضعى ومستقبلى ومستقبل اسرتى ابى واخوتى ومستقبل بلدى. ومضيت فى طريق النضال إلى اقصى مدى، دون أن أتوقف عن عملى كتاجر.

وإلى لقاء لنكمل مسيرتنا مع مسيرة مناضل صنع نفسه.